العرب
الثلاثاء 2019/07/30
السنة 42 العدد 11423

هل يمكن للشاعر العربي أن يعيد إلى الشعر دوره الطليعي

أزمة الشعر أزمة الإنسان المعاصر الذي تخلى عن أحلامه وقيمه

لا يختلف اثنان على أن الشعر يعيش أزمة اليوم، وإن كان بعضهم يقصرون الأزمة في الواقع العربي، فإن هذا خاطئ، حيث الأزمة امتدت لتطال الشعر في كل مكان، أمسيات هنا وهناك لا يحضرها إلا نزر قليل، كتب شعرية لا تبيع إلا أعدادا محتشمة من النسخ، قراء ونقاد وناشرون ومنابر إعلامية، كلهم انصرفوا عن الشعر، ولهذا أسبابه، ولو أن الأمر في العالم العربي له خصوصياته، من حيث النقاشات الشكلية التي عادت إلى السطح.

مفيد نجم
كاتب سوري

الشعر الذي كان يتقدم المشهد الثقافي في العالم، ويضبط إيقاعات تحولاته الجمالية والفكرية ظل يمارس هذا الدور حتى غياب أهم أعلامه. والشعر الذي حقق أهم نقلة نوعية في الشعرية العربية مع جيل الرواد وما تلاه من تجارب لم يستطع أن يتجاوز منجزه في ظل حالة الفوضى والكتابة المجانية التي يعيشها في الوقت الراهن.

> **الحديث عن أزمة يعيشها الشعر ليس تهمة فتجليات الأزمة ظاهرة في تراجع عدد قراء الشعر ودارسيه وناشريه**

كل هذا حدث مع تراجع الشعر عن لعب دور الحصان الذي كان يقود عربة الإبداع هنا وهناك، وعن قدرته على إغواء القارئ واجتذابه إلى قراءته وبالتالي اجتذاب الناشر إلى نشره. فهل الشعر في أزمة وإن كان كذلك فكيف نتلمسها.

أزمة الشعر

يسأل البعض في هذا السياق هل بلغت قصيدة الحداثة سقف الشعرية مع قصيدة النثر بتياراتها وتجاربها المختلفة. ويسأل آخرون ماذا بعد أن استثمرت القصيدة الحديثة أدوات التعبير الجديدة مع انفتاحها على الأجناس الأدبية والفنون المسرحية والبصرية الأخرى، وعلى المرجعيات الصوفية والميثولوجية والفلسفة وتوظيف بعض وسائلها التعبيرية وتقنياتها وطاقاتها الإيحائية والرمزية.

واستعار الشاعر الحديث في هذا السياق الحداثي القناع والأسطورة والرموز التاريخية والدينية والميثولوجية، كما استخدم المشهدية واللقطة والتقطيع المشهدي واللوحة والسرد. ترك ميراثا عظيما ووافرا صنعه شعراء المدارس المختلفة من خلال تمثل كل هذا عبر علاقات التناص التي أقاموها مع هذه المرجعيات والتقنيات، فهل استهلك الشعر طاقات اللغة وأدوات تعبيرها إضافة إلى ما استعاره من أدوات ولغة ثانية في تجارب شعرائه، أم أن مصطلح تفجير اللغة الذي جاءت به الحداثة الشعرية ما زال قادرا على اجتراح لغة جديدة وجماليات جديدة للشعر.

الحديث عن أزمة يعيشها الشعر ليست تهمة. مظاهر هذه الأزمة وتجلياتها ظاهرة في تراجع عدد قراء الشعر ودارسيه وناشريه. الحديث عن الأزمة لا يعني أن هذا الشعر فقد قدرته على الإبداع والإضافة في تجاربه الأكثر استحضارا وتمثلا لروحه وخياله وطاقات لغته المجازية والتعبيرية. ما نعنيه بالأزمة هو عجزه عن تحقيق اختراق ما في سقف السائد من الكتابة الشعرية، يمكنه من خلاله استعادة دوره الطليعي في إيقاظ روح الإبداع وإشعال حرائقه في القارّ من الأدب والفنون كما كان سابقا.

في العالم اليوم، يوم الشعر والعشرات من المهرجانات الدولية التي تقام في أغلب قارات العالم، لكن كل هذا لم يضف إلى رصيد الشعر على مستوى انتشاره شيئا مهما. قبل هذا كان الشعر يصنع تحولاته وثورته حتى في أكثر مراحل التاريخ حلكة وخرابا. لذلك ثمة مفارقة يمكنها أن تؤشر على واقع الأزمة، وتعيد السؤال حول أسباب تراجع مقروئيته وتأثيره على الفنون الأخرى.

لكن إذا كانت هناك أزمة فأين تكمن أسبابها في الشعر أم في تحولات الثقافة والواقع والقيم المجتمعية في عصر الاستهلاك وسيادة وسائل التواصل الاجتماعي وعصر الفضاء. إن إعادة قراءة المشهد تاريخيا وجماليا يمكنها أن تكشف العلاقة بين كل هذه العوامل والأسباب وهي عوامل لم يتوقف تأثيرها على الشعر بل تجاوزه إلى المسرح والقصة القصيرة والسينما وهو ما يتجلى في تأثيرها وحضورها داخل المشهد الثقافي عربيا وعالميا.

الحداثة والحكايات

يذهب البعض من الدارسين إلى أن حضور الشعر يرتبط بالحامل الإنساني ممثلا بالقضايا الإنسانية الكبرى منذ كان الشعر ملحميا. غياب القيم الإنسانية الكبرى والحلم الإنساني بالعدالة وتحول الإنسان إلى مستهلك وسيطرة وسائل التواصل الحديث وقيم العولمة والتوحش الرأسمالي تركت أثرا واضحا على مستقبل الشعر وقدرته على إيقاظ تلك الروح المنهوبة والمحطمة لإنسان هذا العصر.

بالمقابل ثمة من يرى في صعود الرواية صعودا للحكاية واستعادة لموقعها في الأدب ولهذا أسبابه الموضوعية والنفسية. إن حالة العزلة التي أصبح يعيشها الإنسان المعاصر وغياب علاقات التواصل والتعاطف في المجتمعات الحديثة جعلا الإنسان يحاول التعويض عن ذلك بقراءة الرواية، حيث يعيش مع عالم شخصياتها وتجاربها. التلصص على الآخر من خلال الرواية وخلق واقع بديل يشعره بالتعاطف أو العكس عند القارئ هو ما جعل الرواية تتقدم وتتصدر عالم القراءة في المجتمعات الغربية كما في مجتمعاتنا العربية.

ولتأكيد ذلك يذهب الدارسون إلى البرهنة على هذا التحوّل من خلال انتقال العديد من كتاب الشعر إلى كتابة الرواية واستغراقهم في تجربة السرد، حتى أن البعض منهم تناسى أو نسي ميراثه الشعري القديم. إن ما يعانيه الشعر من أزمة في القراءة هو الوجه الآخر للأزمة التي يعيشها الشعر، فهل كان انفتاح الشعر الواسع على الثقافة التي تحولت إلى مرجعية أساسية له جعلته شعرا نخبويا، أم أن فقدانه لتلك الغنائية واللغة الوجدانية التي كانت تسمه هي التي أسهمت في صناعة هذه الأزمة، أم كل هذا مجتمعا كان المسؤول عن هذا المآل الشعري.

لم يعد مفهوم الحداثة عند ما تبقى من روادها عربيا واحدا، بعضهم تراجع عن مفهوم التجاوز والإضافة واعتبر أن مسألة الحداثة لا علاقة لها بشكل القصيدة، ما أعادنا مرة أخرى إلى الجدل حول العلاقة بين ثنائية الشكل والمضمون. كذلك ثمة محاولات لإعادة تجديد القصيدة العمودية في هذا السياق ما يشكل وجها آخر من وجوه أزمة الشعر والحيرة التي أصبح بعض الشعراء يعيشونها إزاء المفاهيم التي طرحتها الحداثة الشعرية ما يكشف عن وجه آخر من وجوه هذه الأزمة التي يعيشها الشعر راهنا.

الشاعر في حيرة على مستقبله (لوحة للفنان بسيم الريس)

شهرزاد الألمانية، وشهرزاد العربية

حسونة المصباحي
كاتب تونسي

تبدو الألمانية لو أندرياس سالومي شبيهة بشهرزاد الشرقية إذ أنها استطاعت أن "تُرَوّضَ" أكثر الرجال حنكة وفلسفة وثقافة وموهبة وعبقرية في عصرها (نهايات القرن التاسع عشر، والعقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين). من أشهر هؤلاء يمكن أن نذكر فرويد، وباول راي، ونيتشه، وهوفمانستال، وريلكه.

والبعض من الذين هاموا عشقا بها، انتحروا، أو ابتلعهم ليل الجنون. فقد كانت لو أندرياس سالومي تجْمَعُ بين الجمال والرقة والأناقة والذكاء والثقافة الواسعة وقوة الشخصية. ولم تمنعها مغامراتها العاطفية التي اكتوت بها في سنوات شبابها وكهولتها من أن تؤلف ما ينيف على العشرين كتابا، بينها كتاب عن نيتشه لا يزال يعتبره المختصون من بين أفضل المؤلفات لفهم فلسفة صاحب "هكذا تكلم زرادشت"، وفكّ ألغازها. كما أنها كتبت العديد من القصائد الرفيعة، والدراسات العميقة حول الأدب والفلسفة وعلم النفس. ويقال إن ريلكه همس للمحيطين به ساعة احتضاره "وحدها سالومي تعرف سرّ حياتي". أما نيتشه المعروف بعدائه للنساء حتى أنه لم يتردد في نعت المرأة بـ"حيوان بشعر طويل" فقد كان يعتبرها "الأشد ذكاء من بين جميع النساء".

ولدت لو أندرياس سالومي في مدينة سانت بطرسبورغ الروسية في الثاني والعشرين من شهر فبراير 1861. وكان والدها غوستاف سالومي المنحدر من أصول ألمانية جنرالا في الجيش الروسي، ومستشارا للدولة. وقد عاشت لو طفولة سعيدة في بيت فخم يقع قبالة "قصر الشتاء". وكان لعائلتها خدم من التتر، و"جيش من الطباخين، ومن سوّاق العربات". وفي شبابها، قرأت أعمال الفلاسفة الكبار أمثال لايبنيتز، وكانط، وسبينوزا، وروسو، وكيركوغارد. كما درست تاريخ الديانات، وتعرفت على أساطير الشعوب والأمم القديمة. ولأنها كانت تعاني من متاعب صحية، فإن الطبيب نصحها بالسفر إلى إيطاليا. وكان ذلك في ربيع عام 1882.

وفي روما ترددت على حلقات مشاهير المثقفين والكتاب والشعراء والمفكرين. وجميع هؤلاء كانوا يجتمعون في بيت سيدة ألمانية من أصول أرستقراطية. وخلال تلك الفترة، هام بها راي من النظرة الأولى. بعدها التقت بنيتشه. وعندما أصدرت كتابا بعنوان "صراع من أجل الله"، حصلت على شيء من الشهرة، وتزوجت من المستشرق فريدريك كارل أندرياس. وقد أغضب هذا الزواج نيتشه الذي كان يبتغي أن تكون له لو تلميذة وزوجة وصديقة فكرية. أما أخته التي سوف تتحمس للنازية في ما بعد، فقد وجدت في الزواج المذكور فرصة لشنّ هجومات قاسية وعنيفة على "الصبية الروسية سيئة النوازع والسلوك"، واصفة إياها بـ"الحشرة المسمومة".

وفي عام 1897، تعرفت لو على ريلكه الذي كان يصغرها بأربعة عشر عاما، وعالما بمغامراتها العاطفية الكثيرة في روما، وفي برلين، وفي ميونيخ، وفي فيينا، كتب يقول "أبدا لم يحصل من قبل خلال مشاعري المترددة أن أحسست بالحياة بمثل هذه القوة، وآمنت بالحاضر، وتعرفت على المستقبل. كل هذا حدث لأنه كان لي حظ التعرف عليك" (يقصد لو أندرياس سالومي).

برفقتها، سافر ريلكه إلى موسكو للقاء تولستوي. وسيظل ذلك اللقاء ماثلا في ذاكرة صاحب "مراثي دوينو" حتى نهاية حياته.

في عام 1911، التقت لو بفرويد ليصبح هو أيضا عاشقا لها. وعندما توفيت في الخامس من جانفي، رثاها قائلا "إن شخصيتها تظل في الظل.. فلقد كانت تتمتع بتواضع وفطنة لا مثيل لهما إذ أنها لم تكن تتكلم أبدا في أعمالها الأدبية".

وظني أن لشهرزاد الألمانية شهرزاد عربية مثيلة لها. ولن تكون هذه سوى مي زيادة (1886–1941) التي كان في دمها شيء من لبنان من ناحية الأب، ومن فلسطين من ناحية الأم، ومن مصر التي أقامت فيها الشطر الأكبر من حياتها. وكانت مي، واسمها الحقيقي ماري إلياس، تتقن لغات عدة بينها الإنكليزية، والألمانية، والإيطالية، والفرنسية التي بها أصدرت ديوانها الشعري الأول في سنوات شبابها. وكانت هي أيضا امرأة فاتنة، وأنيقة، ومثقفة من طراز رفيع. ورغم أنها كانت تعلم أنها تعيش في مجتمع شرقي متخلف، ومتشبث بتقاليد صارمة، فإنها تجرأت على الجهر بطموحها إلى الحرية في الحياة وفي الكتابة.

معشوقة أهم رموز الثقافة الحديثة

وفي القاهرة، أشعّ نجمها بعد أن فرضت نفسها ككاتبة موهوبة من خلال المقالات والقصائد التي كانت تنشرها في كبريات الصحف والمجلات المصرية مثل "الأهرام"، و"المقتطف"، و"الزهور"، و"الهلال"... واقتداء بالشاعر الفرنسي الكبير ستيفان مالارميه، فتحت مي زيادة صالونا أدبيا كان يستقبل كل ثلاثاء كبار الأدباء والشعراء أمثال طه حسين، ولطفي السيد، ومصطفى عبدالرازق، وخليل مطران، وعباس محمود العقاد، ومصطفى الصادق الرافعي، وآخرين. وقد أحبها البعض من هؤلاء، خصوصا العقاد، إلاّ أنها ظلت حتى نهاية حياتها عاشقة لجبران خليل جبران، ووفية لحبها له رغم أنهما لم يلتقيا أبدا، بل كانا يكتفيان بتبادل رسائل عاطفية وأدبية بديعة.

وبعد وفاة صاحب رائعة "النبي"، عاشت مي زيادة "صقيع الوحدة" إذ انفض من حولها الكثير من عشاقها، ومن الذين كانوا يترددون على صالونها الأدبي. وباحثة عن شيء من حرارة العواطف الإنسانية، عادت مي زيادة إلى لبنان إلاّ أن عائلتها عاملتها كامرأة "سيئة السمعة"، وأدخلتها إلى مصحة للأمراض العقلية. حينئذ هب الأديب الكبير أمين الريحاني لمساعدتها على الخروج من النفق المظلم الذي حُشرت فيه غصبا عنها.

> **لو أندرياس سالومي ومي زيادة كلاهما تمثلان شهرزاد، الأولى نجحت في خط تجربتها والثانية صدها المجتمع الشرقي الذكوري**

وبعد أن استعادت صحتها، عادت إلى القاهرة آملة أن تجد فيها ما يعيد لها إشراقة الأمل، وحيوية الإبداع. وعندما لم يتحقق لها ذلك، سافرت إلى لندن، ثم إلى روما. مع ذلك ظلت أوضاعها النفسية تزداد سوءا سنة بعد أخرى. وعندما توفيت عام 1941، لم يحضر جنازتها سوى ثلاثة من أصدقائها القدماء وهم خليل مطران، ولطفي السيد، وأنطوان الجميل.

وفي رثائها، كتبت هدى شعرواي، التي تزعمت أول حركة نسوية في مصر للمطالبة بتحرر المرأة، تقول "كانت مي المثل الأعلى للفتاة الشرقية الراقية والحديثة". أما أمين الريحاني فقد اعتبرها ضحية "النفاق الذي هو أساس الأقوال والأفعال في بلاد الشرق". وكان على حق إذ مي لم تتمكن من فرض نفسها كامرأة وككاتبة حرة مثلما فعلت لو أندرياس سالومي. والسبب في ذلك يعود إلى أنها اصطدمت بمجتمع شرقي متخلف، مشدود إلى الماضي، ورافض لكل ما يمكن أن يبعده عنه، ويريحه منه.